الولي والمقدس في المورث الروحي بالجزائر

سيدي نايل نموذجا

أ.سي فضيل منى

أستاذة محاضرة

قسم علم الاجتماع والديموغرافيا

جامعة الجزائر2

ملخص الدراسة:

إن الإنسان كفرد من المجتمع كانت له زمرة ينتمي إليها عبر الأزمنة المتعاقبة لها تقاليد وممارسات يقوم بها داخل رقعة جغرافية يتوارث فيها الأجيال إرثا ماديا ومعنويا.

إن الموروث المعنوي والذي يعرف أيضا بالموروث الروحي في الجزائر تظهر ملامحه في الممارسات اليومية والعادات والتقاليد التي واظب عليها الفرد واستعملها في المناسبات العديدة من صيغ ودعاء واستجداء وتضرع والتماس شفاعة ووساطة لدى الأولياء والأنبياء وأهل البرهان ولا يخيب دعاء من استجار بهم في رد النائبات وفي هذه الأجواء العطرة وفي هذا السياق المعرفي الذي لا يتعارض فيه ذلك الموروث الروحي الذي احتضنته الأجيال المتعاقبة واتخذته في كثير من مراحلها ملاذها الآمن .

الكلمات المفتاحية :الولي، المقدس، التصوف، الرباط، الزوايا، الموروث الروحي

مقدمة:

عبر مرور الزمان شرع ذلك الموروث الروحي الذي أغدق علينا عطاءه وتراكم عبر عقود من الزمن تزداد قيمة وتمتد جذوره وفروعه في أصلاب الأمة مثل سريان الدم وامتداده في الأوردة والشرايين ومع ما رق ودق من العروق السارية في البدن الحيز.

ولقد ازداد تقديري لهذا الموروث الروحي الثقافي الذي تزخر به منطقتنا الجغرافية الشاسعة، والذي زخرت قنواته بالجيد المفيد عبر قرون من الزمن ،وحتى إذا ما جر في تدفقه بعضا من الغث ومن الشوائب إلا أن الشمس لا يخفيها الغربال كما يقال، لقد تساءلت هكذا قائلة : كيف أستطيع تفعيل تقديري لهذا الموروث الروحي، والثقافي والتراثي العام وهو الذي يمتد روحه وأنواره وأفعاله وآثاره وعظائمه وتجلياته وتأثيراته منذ بعثة الرسول مُحَمَّد ﷺ وهو الذي لا يكل ولا يمل عن مواصلة وظائفه وحفظ التواصل بينه وبين الافراد والجماعات

الإشكالية:

ان احتيار الموضوع نابع من الرغبة في الاضطلاع بجزء من رسالة المساهمة في إحياء جانب من تلك المعالم الهامة من تراثنا الروحي والثقافي الذي تزخر به بلادنا ،والإشادة بتلك المنارات التي حافظت على ذلك التراث الذي يتمثل في زوايا تحفيظ القرآن الكريم وتعليم مشمولات الثقافة الإسلامية بمختلف فروعها وبالقدر الذي توفر للقائمين بهذه الرسالة من إمكانيات ،مع التصدي لحملات التنصير والتجهيل ،والتدمير المستمر لكل أسباب ومقومات حياة الأمة.

وما أكثر الجوانب التي اضطلعت بها الزوايا المشيدة هنا وهناك في وطننا الشاسع شرقه وغربه شماله وجنوبه متصدية لملء فراغات رهيبة متعددة المحاور. من توفير الإيواء للمحرومين منه وتوفير اللقمة ،وضمان الأمان في أزمنة طالما عز فيها الأمن والأمان لأبناء السبيل. والى جانب هذه المعاقل الهامة ذات المهام المتعددة التي تشكل ملاذا هاما للأفراد والفئات والجماعات فان ثمة نماذج من شخصيات حصلوا على حضوة وامتياز وتقدير من المحيط الاجتماعي الذي ولدوا وعاشوا في رحابه ..منهم من غادروا الدنيا وبقي سمعتهم ،ومآثرهم وسيرهم التي تشهد لهم بالتقوى والصلاح والمنزلة الأعلى وهم المسمون أولياء الله الصالحين. وقد ارتفع عدد هذه الفئة في مناطق مختلفة من الوطن عبر مراحل متلاحقة من الزمن واكتسب عدد كبير من تلك الشخصيات ثقة الناس والارتياح لكراماتهم ،وبلغ الحاضر منهم الغائب أخبار تلك الكرامات وأصبحت أضرحتهم مزارات لا تنقطع عنها وفود الغادين والرائحين، وهذه الظاهرة القديمة المتجددة بحاجة ماسة لدراسة معمقة تضيء وتضيف جديدا بدل إسدال الستار عن واقع قائم ومؤثر ولا يغادر الديار. وها هي الصفحات والسطور الآتية أقدمها بكل تواضع راجية بان تضئ بعضا من جوانب الموضوع ،وبالفعل فاني لا استطيع أن أسدل الستار على موضوع أولياء الله الصالحين الذي طالما سمعته وهو يتكرر على ألسنة أفراد العائلة كلما دعت الحاجة إلى الاستعانة بذكره توسلا ،وإراحة للنفس ،وتنفيسا عن الكرب .كما لا أستطيع أن أغض الطرف عن "الصوفي"وعن ولي الله الصالح .فالصوفي وولي الله الصالح يغرفان من جدول واحد

تعريف الولي:

الولي الصالح يتناسى ذاته ،ويمحو "الأنا" وكل ما يتطلبه من ملذات الدنيا ومغرياتها وذلك للمشاركة والاقتراب من السدرة الإلهية وهذه الخطوات تعبير عن القداسة الموجودة لدى جميع الديانات

تعريف القداسة:

القداسة في الدين الإسلامي، نجد أن هناك خاصيتين متمثلتين في القداسة الوراثية ،أي التي تنتقل عبر الأسرة (من الأب إلى الابن)،كما نجد القداسة التي تولد وتنمو داخل الجماعات الصوفية ،وذلك بواسطة طرق تدريب روحانية خاصة ولقد أكد الكثير من الذين تناولوا موضوع الأولياء على ما توفر لديهم من مميزات أساسية خاصة هي التي نسجت ثقة عميقة بينهم وبين الناس .قد يمكن لولي واحد أن تكون له عدة مقامات في مناطق مختلفة حيث تقام لكل منها زيارات وزردات فهذا الولي يكون حاضرا في كل المقامات بفضل قوته الروحانية ،ويقال كذلك عن بعض الأرواح أنها مزدوجة ،ومثال ذلك "سيدي مُحَّد بوقبرين"(واحد بنواحي معاتقة بالقبائل الكبرى ،وآخر في بلكور بالعاصمة)وهو متواجد فيهما في آن واحد وبفضل روحانية الولي ،فالمقابر التذكارية تزيد في قيمة المقامات.كما يقول الأستاذ عبد الحميد بورايو في كتابه (القصص الشعبي لمنطقة بسكرة)،والإمام ابن تيمية (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطانو مُحَّد الجوهري (الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية)،بأن الولي هو المقرب إلى الله وهو الإنسان المفضل ،له موهبة في الكرامات ،وهذه الصفة تنطبق على الأولياء الموتى وتجمع بينهما.إن الإنسان كفرد من المجتمع وعبر الأزمنة المتعاقبة كانت له زمرة ينتمي إليها لها تقاليد وممارسات يقوم بها داخل رقعة جغرافية تتوارث فيها الأجيال ارثا ماديا ومعنويا .فالموروث المعنوي هو صميم بحثنا وهو يتمثل في المعتقدات وأصنافها ففي آسيا في الهند تقدس الجرذان والثيران والأصنام وتقام حولها طقوس و تقدم الهبات والنذور وهي نابعة من خصوصية مجتمع ورقعة جغرافية وثقافته الاجتماعية.في المشرق في سوريا ومصر وتركيا يتردد لفظ المحروسة في تسمية الأماكن.أما ما يميز مجتمعات المغرب فهي ظاهرة الجد المؤسس فهذا الأخير يتعامل معه الناس بنوع من القداسة نظرا لأهميته الشخصية التي تعتبر بمثابة المرجعية الأساسية التي تتأسس من خلالها القيم والتصورات[1].

وباعتبار هذه المعاملات تشكل جزءا من التراث الشعبي التقليدي ،فتؤكد نسبة كبيرة من أفراد المجتمع على الأهمية الروحانية لهذه الطقوس ويقال بأن هؤلاء الأولياء الصالحين هم أشخاص جد متعلقون بالدين يكرسون حياتهم لطاعة الخالق وأنهم معروفون لكونهم حملة العديد من الخيرات ،ينشرون رسالة القرآن الكريم، يواسون المرضى ،ولا نهاية لبركتهم ،يساعدون الناس بتعاطفهم معهم ،على تجاوز مصائب الحياة.فهذا الإجماع حول البعد الديني للطقوس يعبر عن تدريب أفراد المجتمع على هذه السلوكات وهذه الأخيرة لا تقتصر فقط على الفائدة الدينية ،وإنما أيضا تمتد لممارسة حالات علاجية ،وقائية وتطهيرية. "ففي الإطار الريفي ينمو الفرد داخل نمط معياري مغلق مشترك ويكون معاشه الذاتي نسخة من معاش كل الجماعة التي ينتمي إليها وتبرز المعتقدات الجماعية في قدرة الأولياء ،والمبرئين العلاجية،نوعا من التأثير العلاجي البديل على الجميع.فكثير من الأولياء ،نالوا شهرتهم الواسعة وعرفهم الأتباع من خلال الطرق الصوفية المختلفة ،التي تدافع عن مبادئ الأولياء وتعاليمهم وتروج لها بين الناس ،وتقيم لها الاحتفالات السنوية ،بأنواعها المختلفة وكثير من الطرق الصوفية الواسعة الانتشار ،تحمل اسم أحد الأولياء الصالحين الذين يقيمون في رحاب هذه الرقعة الجغرافية الواسعة.

[1] الحمودي عبد الله،الانقسامية والتراتب الاجتماعي والسلطة السياسة والقداسة في الأنثروبولوجيا ،دار توبقال للنشر ،المغرب ، 1988ص83

تعريف التصوف:

ان مفهوم الولي قديم قدم الحياة الروحية في المجتمع تضرب جذوره في الثقافات الدينية القديمة وذلك المفهوم يرتبط ارتباطا وثيقا بموطنه مثل ارتباط النبع بمصدره ومجراه وكالشجرة بمنبتها .إن التصوف يأخذ مرجعيته من العصر النبوي وتعتمد الصوفية في مناهجها على ممارسات قائمة على نبذ زخرف الحياة الدنيا والإقبال على الطاعات والعبادات بالإضافة الى مجموعة من الأورادوالأذكار يتوارثها الصوفيون من شيخ الى أخر في سند متصل ينتهي عند رسول الله ﷺ. وتعتمد الصوفية في منهجها على تربية الروح والنفس على الأخلاق الحميدة وكبح جماحها وترويضها على التحلي بالفضائل وتنمية روح المراقبة والمحاسبة .والولي الصالح يرتبط تقديس سره بسلوكه المتميز بالاستقامة.وفي المغرب العربي بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة تميز دور الأولياء بالحفاظ على الشريعة الإسلامية ونشر تعاليم الدين الإسلامي ومقاومة الاستعمار مثل الولي شرعا هو العارف بالله وبصفاته حسب الإمكان .يتميز المغرب العربي والمشرق العربي بتوظيف اسم الولي توظيفا معنويا وماديا ولتوثيقه في الذاكرة الاجتماعية مثل المرسيأبو العباس في الإسكندرية(مصر) فهو حارس البحار المصرية والقطب الغوث الجيلالي عبد القادر الزعيم الروحي للامير عبد القادر الجزائري رمز المقاومات الشعبية لتحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي.مثله كالشيخ الحداد والمقرانية.

تعريف الرباط:

إن المنارات التي كانت ملاذ الصوفية ومريدي الطرق الصوفية هي الزوايا ،إن أصل الزاوية هي الرباط أو الرباطات التي عرفتها البلاد مع الفتح الإسلامي وهي أماكن لاجتماع المجاهدين أو لالتقاء الصالحين وللعبادة والتفقه في أمور الدين1 ،كما يمكن اعتبارها تطورا "للرابطة"أي الصومعة التي يعتزل فيها الولي ويعيش وسط تلاميذه ومريديه ،كما أطلقت كلمة الزاوية على صومعة الراهب المسيحي ثم أطلقت على المسجد الصغير أو المصلى ،ولا يزال لكلمة الزاوية هذا المعنى عند المسلمين في الشرق ذلك أنهم يفرقون بينها وبين المسجد الذي يفوقها شأنا وهو يعرف أيضا بالجامع .على أن مصطلح "زاوية"ظل محتفظا به في شمال إفريقيا بمعنى أكثر شمولا من ذلك ،وإذ يطلق على بناء أو طائفة من الأبنية ذات طابع ديني وهي تشبه الدير أو المدرسة[1].

كان أول رباط أسس على هذا المنهاج هو ببرقه:" البيضاء الليبيةّ" على يد الصحابي الجليل رويفع بن ثابت الأنصاري سنة 46 هجرية676م وقد أقيم له ضريح سنة 53 هجرية-683م في نفس الرباط و أوكل لهذا الرباط الثابت مهمة مكملة لوظيفة المسجد، أي يساعد السكان الأصلين الذين دخلوا في دين الله أفواجا على تعليم لغة القرآن الكريم وأمور دينهم ليواصلوا الجهاد في سبيل الله وفي سبيل إعلاء راية الإسلام الذي أحبوه).

واكبر رباط راس، بني سنة 98هجرية728م بالمناستير التونسية على يد الولي العباسي حرطم بن عيان وبأمر من الخليفة هارون الرشيد لحماية العاصمة الإسلامية الأولى في إفريقيا وهي القيروان التي أسسها عقبة ابن نافع سنة40هـ-670م.

وإذا رجعنا إلى البكري في كتابه تاريخ إفريقيا الشمالية نجده يصف بدقة" محرز رباط" سوسة الإفريقية وقصبته المحصنة.

[1] نور الدين طوالبي ،صراع القيم في حالة التغير الاجتماعي السريع ،حوليات جامعة الجزائر،رقم 1،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر،1987،ص127.

تعريف الزاوية:

فالزاوية هي أيضا ركن البيت أو المسجد أو المصلى ،وهي باليونانية Yoviaوتعني صومعة الراهب فالزاوية هي مكان لإقامة شعائر الدين الحنيف بالصلاة والصوم والتهجد والتأمل والفكر والاستغراق وتلاوة الأوراد وإقامة حلقاتالذكر للانقطاع إلى الله سبحانه عما سواه ،كما أنها محلات كثيرة لإقامة الزائرين والفقراء المتجردين .وفيها قسم خاص للعجزة والمرضى والشيوخ من هؤلاء المتجردين ومن المساكين من أتباع الطريق ويخصص قسم منه للنساء.وفيها البيت الذي يسكنه الشيخ وأهل بيته وأولاده وهي عبارة عن مجمعات من البيوت والمنازل مختلفة الأشكال والأحجام ،تشمل بيوتا للصلاة كمساجد وغرف لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم العلوم الإسلامية،وأخرى لسكنى الطلبة وطهي الطعام وتخزين المواد الغذائية والاعلاف وإيواء الحيوانات التي تستغل في أعمال الزاوية[1].

لقد كانت الزوايا حصنا منيعا ضد الحملات التبشيرية وقامت بدور جليل في ترسيخ القيم الدينية والحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية وتراثها الثقافي رغم محدودية إمكانيتها وبساطة مناهجها.ولقد عوضت قلة العدة والمال والعتاد بالإيمان العميق برسالتها المقدسة ،وبغيرتها الوطنية وتفانيها في خدمة التراث الحضاري الجزائري مترجمة تلك الغيرة إلى احتضان الناشئة في رحابها ،فالأولياء الصالحون والطرق الصوفية تفرعوا من منهج التصوف الذي يضرب جذوره من اعتكاف الرسول عليه الصلاة والسلام في غار حراء، إن الطرق الصوفية في الجزائر كان لها دور في المقاومة ضد الاستعمار مثل مقاومة الأمير عبد القادر وهو ينتمي إلى الطريقة القادرية إضافة إلى دور الشيخ الحداد والشيخ المقراني ولالة فاطمة نسومر المنتمين الى الطريقة الرحمانية.

قبل التحدث عن الطرق الصوفية وانتشارها سوف نعرف التصوف فكلمة التصوف تحمل أكثر من معنى فهناك من ينسبها إلى الصوف ،وهناك من يقول أنها منسوبة إلى كلمة "صوفيا"اليونانية التي تعني الحكمة.لكن يوجد من يرجح القول الأول ،فقد حدث اليافعي أن لباس الصوف[2] كان غالبا على المتقدمين من سلف الصوفية لكونه أقرب إلى التواضع والزهد ولكونه لباس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

والصوفية مفردها صوفي ،وقد جرى خلاف كبير بين العلماء في سبب هذه النسبة[3]، فمنهم من ذهب مذهبا في معنى "الصوفي"و"التصوف"إما مقلدا من سبقه وإما مخترعا لمن يأتي بعده ،وعموما هناكثلاث تقسيماتكبرى لهذه اللفظة تحوي ثلاثة معان،معنى لغوي ،معنى فني ، ومعنى عرفي.

المعنى اللغوي:

هو تكلف لبس الصوف يقال :تصوف الرجل يتصوف تصوفا ،إذا تكلف فعل لبس الصوف، مثل تقمص تقمصا.

المعنى الفني :

[1] محمد ثابت الفندي ،محمد ثابت وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية ،مجلد 10،ص113 .

[2] عبد القادر،عيسى، حقائق عن التصوف،حلب،1961،ص50.

[3] عبد الهادي،الجوهري،دراسات في علم الاجتماع الإسلامي،مكتبة نهضة الشرق،القاهرة،1983.ص28

هو علم مدون تعرف به كيفية تصفية الباطن من عيوب النفس شرعا وعقلا كعيب الحسد والحقد والرياء والتقرب الى الأغنياء والحكام والتجافي عن الفقراء والعلماء وهلم جرا...

المعنى المعرفي:

هو التخلق بأخلاق الصوفية والاقتداء بهم في الأقوالوالأفعال والمقاصد. وهذا المعنى هو المتبادر إلىالإفهام عند سماع لفظة التصوف وإطلاقها[1].

يعتبر التصوف مذهبا والغرض منه تصفية القلب عن غير الله ، والصعود بالروح الى عالم التقديس بإخلاص العبودية للخالق والتجرد عما سواه.

ان هذا الموروث الروحي الذي حظي بأسباب وشروط بقائه واستمراره والذي اكتسب مساحة كبرى في الزمان والمكان ونفس المريدين لجدير بان يلقى العناية والاهتمام من ذوي الفكر والمعرفة من اجل حماية ذلك الجوهر القائم على تعاليم الدين الإسلامي وسنة الرسول وسيرة صحابته التابعين الكرام. ونظرا لما تعكسه الزوايا من قضايا فكرية تتحكم في تحديد معالم وآليات تطور المجتمع وذلك لما تستقطبه من فئات مختلفة الأعمار، وعمل هذه المؤسسة الدينية على الوصول إلى مجتمع يتمسك بدينه وبوطنيته ، بل وأعمق من هذا هو السعي في الخطوات الأولى لتحقيق وتجسيد هذا الإيمان عمليا[2].

وهذا ما تنبه اليه الغرب واصبحوا يرون في الزاوية خطرا يهدد مشاريعهم الاحتلالية ومحاولات تغلغلهم داخل المجتمع بطريقة او بأخرى ولهذا بالذات تعددت الدراسات حول الزوايا واصبحت مجالا خصبا للغربللبحث بمختلف انواعها وابعادها مما يؤكد ضرورة التنبيه لمختلف مكائد الاستعمار والتصدي لها.

فلطريقة الصوفية شيوخها ومريدوه الذين ينتمون الى جدهم الاول الذي يمثل مرجعيتهم الاصلية كما هو حال مريدي وشيوخ الطريقة القادرية التي تنتمي الى سيدي عبد القادر الجيلالي المولود في بغداد.

فبالنسبة لسيدي نايل فان اولاده منتشرون في كل انحاء مسيلة وبسكرة وبوسعادة والجلفة .

ان الولي الصالح استطاع بحكم رمزيته وكرامته ان يحقق امتدادا وتواصلا في انحاء واسعة فمثلا بالنسبة للهند وافريقيا السوداء انتشرت الطرق الصوفية التي افلحت في تطبيق التعاليم الدينية .

ان الممارسات والطقوس الدينية التي تقام حول الاضرحة تساعد على الحفاظ على موروث ثمين يمثل بطاقة تعريف وخصوصية شعب . كما قال المفكر مُحَمَّد إقبال في كتابه تجديد التفكير الديني في الإسلام"وقد عملت المذاهب الصوفية الصحيحة عملا طيبا من غير شك في تكييف الرياضة الدينية في الإسلام وفي توجيه خطاها" .

[1] ابن عبد الكريم مُحَمَّد، الجزائري، التصوف في ميزان الإسلام، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1997، ص17.

[2] مُحَمَّد بن ربيع هادي،المدخلي، .حقيقة الصوفية، دار الحديث ،مكة،2000،ص16.

ان ما قاله المفكر الإسلامي المتميز برهان موضوعي على دور ومكانة الطرق الصوفية في نشر واستمرار تعاليم الدين الإسلامي .

ومن خلال بحثنا في وصف التصوف وتعريف الأولياء ومراتبهم ان استمرارية وديمومة الرموز المعنوية لا زالت قائمة في منطقة الجلفة وضواحيها اذ لاحظنا ان هناك نمطا محافظا عليه لا زالت كرامة الولي سيدي نايل واضحة الملامح في شيم أبنائها ومحافظتهم على الأصالة والكرم وحسن الضيافة وكذا في أبنائها وشيوخها القائمين على الزوايا وتعليم القران الكريم والخلق السليم .

من خلال بحثنا المتواضع استنتجنا ان كرامات الأولياء الصالحين أولياء الرحمن المرابطين في ثغور المقاومة قوة خارقة مستمرة وممتدة وهي بمثابة طاقة روحية ايجابية تتزود بها الأرواح السليمة والعقول المستنيرة بالخصال والخلق النابعة من تعاليم ديننا الحنيف في الصبر والمجاهدة والعمل والتواضع والقناعة والصفاء وإصلاح ذات البين ودفع الفتن ومعاول التدمير .

لقد كتب النجاح والتفوق للموروث الديني والثقافي والروحي على المحاولات ذات الأشكال والصيغ المتعددة لتيار العولمة الذي تناقلته الأجيال منذ الماضي البعيد وهو زاخر بالمعاني ،والأفكار ،والدلالات الهامة والقيم السامية التي سادت وأثرت ايجابيا في ميسرة الأفراد والجماعات وسجلت خلال تاريخها المديد قفزات نوعية نحو الأفضل والأفيد في مختلف مجالات الحياة الإنسانية.

فلم تستطع تلك المحاولات ان تنال من ذلك الرصيد المادي والمعرفي والروحاني الذي تغلغل في النفوس وتجذر في الأذهان واندمج اندماجا كليا في الأفعال والأقوال والرموز والإشارات والعادات والأدعية والنذر والمواسم والقرابين والأذكار والاحتفالات المرتبطة بالأساطير الشعبية والملاحم ذات العلاقة بالأحداث التاريخية التي تمزج الحقيقة بالخيال وغير ذلك مما لا تتسع هذه الوريقات المتواضعة لسردها .وقد استقر رمز الولي الصالح في وجدان الأفراد والجماعات على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ومعتقداتهم وانتمائهم الجغرافي .

ان هذا الموروث الذي تمتد جذوره لبدايات بعيدة من تاريخ شعوبه ومجتمعاته تختلف مضامينه ووظائفه ولكنه يتفق مع نظرائه في مختلف أصقاع المعمورة في امتلاك سلطة مطلقة في ممارسة التأثير على الأفراد والجماعات والأتباع وفق ما تمليه أحكام التراث .

ان هذا الرصيد الهام الذي تتوارثه الأجيال جيلا بعد جيل وتسهم في تغذيته نفس تلك الأجيال يضطلع برسالة عظيمة الأهمية في حياة الأفراد والجماعات ،إذ يشكل هذا التراث الخصب على مر الأعوام ملاذا للأفراد وللجماعات من خلال المواسم المختلفة التي تقام عند ضريح ولي من أرجاء الجزائر اتصال وتواصل وتزويد النفوس بالطاقة والراحة النفسية يتخلصون من أثقالهم ويحطون رحالهم في واحة من واحات فك طلاسم الحياة وفهم البعض من أسرارها.

لقد أدى ذلك التراث الروحي والمادي والفكري الذي توارثته الأجيال دوره الكامل في مساعدة المجتمع بالتكفل بقضاياه الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والروحية والغيبية في حدود المتاح والمستطاع.

ان الولي الصالح وقدسية رسالته قد ترك حوله وفي مرقده في ضريحه استمرارية دينية ثقافية واجتماعية ، "

لقد تعلقت أجيال عديدة بمبادئ الفضيلة والخلق الكريم والمثل العليا وفي مقدمتها خدمة الوطن والدفاع عنه ضد كل معتد أثيم .

وتتردد على مسامعها في كل رقعة من هذا الوطن المفدى تسميات سيدي فلان الى غيره تعبيرا عن قدسية وصلاح أهل تلك الديار.

ان للولي الصالح مكانة اجتماعية متميزة إذ يتحول قبره الى مقام او مزار يقصده الناس من كل جهة، وكما يسمى المكان باسمه كسيدي يحيى الطيار في العاصمة او سيدي عبد الرحمن الثعالبي ، وتقام حول قبة الولي زردات ومواسم وزيارات وتعطى الهبات وتعقد النذور .

فالوظيفة الاجتماعية للولي الصالح مرتبطة ارتباطا قويا في المكان والزمان مع ثقافة المجتمعات وممارساتهم الشعبية .

ومن خلال استعراضنا لمختلف مفاهيم مرتبطة بالولي يمكن القول بأنهو الذي يحافظ من خلال استمرار قدسيته وكرامته ومكانته الاجتماعية على النسيج الاجتماعي والممارسات الدينية والاجتماعية واستمرارها

فهو بمثابة مرجعية ثقافية ودينية تساهم في التواصل بين أفراد مجتمع .فالرموز المادية للولي تتمثل في المقام والضريح او الشجرة او النبع او الكهف ،اما الرموز المعنوية فهي كراماته وتأثيره في المكان والزمان

كان يضرب بعصاه فينفجر نبع يشفى به المرضى فتكون الكرامة هبة من الله تعالى ودعاء مستجاب ومستمر على مر الأيام.

إن الوظيفة الاجتماعية للولي والمقام الى جانب أنها وظيفة نفسية فهي أيضا ثقافة عميقة وموروث اجتماعي يساهم في الحفاظ على خصوصية المجتمع الذي ينتمي اليه ويضع حدودا جغرافية تميزه عن المجتمعات المجاورة.

ومن النماذج الكثيرة والمتنوعة بتنوع ثقافة بلادنا ارتأينا اختيار سيدي نايل في منطقة الجلفة كنموذج لأثراء الموروث الروحي في الجزائر.

تعريف سيدي نايل:

هو سيدي نايل الملقب بن عبد الله الخرشوفي بن مُحَّد بن أحمد بن مسعود بن عيسى بن أحمد بن عبد الواحد بن عبد الكريم بن مُحَّد بن عبد السلام بن مشيش ،بن أبي بكر ،بن علي ،بن حرمة ،بن عيسى بن سلام ،بن مزوار ،بن حيدرة ،بن مُحَّد ،بن ادريس الأصغر بن ادريس الأكبر ،بن عبد الله الكامل ،بن الحسن المثنى ،بن الحسن السبط بن علي بن ابي طالب وفاطمة الزهراء بنت الرسول، ولد سيدي نايل على الأرجح ما بين سنتي 950 هـ ،بمنطقة فجيج بالمغرب الأقصى[1]، وكان من أشهر تلامذة الشيخ أبي العباس أحمد بن يوسف الملياني ،التحق سيدي نايل بالشيخ وسلك في مدرسته التربية الروحية وكان يتقدم على يد شيخه مقاما مقاما حتى يتحصل على الصفاء العالي الذي يلحق بالإنسان هاته الدرجة التي تكتسب على يد مختصين كالشيخ سيدي أحمد بن يوسف وهي التخلية والتحلية، تتمثل التحلية في أن يتخلى المريد من جميع الأوصاف المذمومة ويجب لذلك وسائل روحية فبعد التخلية تأتي التحلية فيتحلى المريد بعناية من عند الله وطاقة ربانية هي الفيض الرباني.

فاكتسب سيدي نايل على شهادة عليا في الصفاء الباطني والظاهري وسلوكات توجيهية على يد شيخه سيدي أحمد بن يوسف الملياني قدس الله سره.

تتجلى مكانة الولي الصالح سيدي نايل في محافظة المجتمع على الموروث المعنوي المتمثل في العادات والتقاليد النابعة من خصال الجد المؤسس والذي حرص كل الحرص على ترسيخها في أذهان الناس وفي تصرفاتهم ومعاملاتهم فيما بينهم .

[1] تحفة السائل بباقة من تاريخ سيدي نايل ،تخريج وجمع عامر بن المبروك محفوظي مطبعة النعمان،الجزائر،2002 م.

مكانة سيدي نايل:

ان مكانة الولي الصالح سيدي نايل ذات شأن عظيم في مختلف الفئات الاجتماعية وله تأثير شديد وسلطة معنوية في كل المستويات الاجتماعية.

ان استمرارية المقدس عند سلالة سيدي نايل واضحة من خلال الحفاظ على تسمية الأبناء بنايل ومحاولة اعادة احياء الموروث المعنوي والحرص على تنشئة الأبناء بنفس مقومات وخصال الجد سيدي نايل . ومن أهم خصائص مجتمع سيدي نايل بمنطقة الجلفة حرصه على اكرام الضيف ففي كل بيت أو رقعة من المنطقة ملامح الجود والكرم وحسن الضيافة التي تحولت الى ثقافة يتميز بها المجتمع النائلي بمنطقة الجلفة ويتنافس أهل المنطقة على اكرام الضيف وابن السبيل ويظهر جليا في قول الشاعر لمباركي مسعودي بسمك ربي خالقي نبدا ننظم _كلمه سهلة تكملي مبداها_الجلفة واولاد نايل نتكلم _سلسلة لشراف يسعد من في وقتاها_فرسان البارؤد ما فيهمش الذم _بيت الضيف امفرشا يا مبهاها.

ان توظيف سيدي نايل في الحياة اليومية يحمل في ذاته انتماء ورمزية وبعد ثقافي وروحي للمنطقة التي ساهمت في مقاومة محاولات الطمس والاستعمار بإبقاء زواياها ومناراتها العلمية صامدة.

إن خصوصية المجتمع الجزائري تكمن في المحافظة على المقدس واستمرار يته عبر التاريخ، ففي كل النظريات الاستعمارية نستخلص أنهم تفطنوا لأهميةالولي الصالح إذ هو المحرك الرئيسي في ثقافة المجتمع والذي ساهم في استمرارية الدين الاسلامي وهوية المجتمع من خلال الحفاظ على قدسية المكان والزمان ودور الولي الصالح ان عنصر المقدس ودور الزوايا عبر المراحل التاريخية يكاد يكون العامل الوحيد الذي ساهم في الحفاظ على استمرارية المجتمع الجزائري وتقاليده في مرحلة عانت فيه البلاد تعاقب العدوان على أراضيها.

تعريف الأولياء الصالحين:

إن الأولياء أو السادة سواء كانوا في الشرق او الغرب لديهم وظيفة اجتماعية وروحية ممتدة وغير منقطعة بانقطاع حياتهم، فنرى في الهند مثلا معتقدات راسخة فالشيوخ ينقلون طريقتهم وأورادهم وممارستهم لمريديهم ويتحول الى ميثاق غليظ يلتزم به مريدو الطريقة. فالأولياء في الجزائر سواء كانوا في الغرب او الشرق او الوسط او الجنوب لديهم كرامات ويعرفون بالعمل الصالح ومشاركتهم في المقاومة ضد الاحتلال في أزمنته المختلفة.

وتقام حول قبورهم مزارات للتواصل الاجتماعي والاحتفالات والمواسم الدينية ،ومساجد ومدارس لتعليم القران الكريم ومراقد لإيواء المحتاجين من أبناء السبيل .

ان هذه النماذج من الأولياء عادة ما يحملون اسم سيدي في المغرب العربي وبهذا يضمنون استمرار يتهم في الذاكرة الجماعية والموروث الثقافي الذي يضمن التواصل بين الثقافات وبين المجتمعات.

ولقد أحسست برغبة ملحة للمزيد من الإطلالة على ذخائر تلك الحياة الروحية التي تزخر بها منطقتنا منذ الماضي البعيد الى أيامنا هذه ولا سيما ما تعلق بحياة الصوفية والتصوف، وذيوع صيت شخصيات هامة بلغت الذروة في تحقيق الأهداف والمعاني والمضامين التي تحرص على تحقيقها رسالة التعبد والتفاني في التطلع الى كل ما هو خير ونبيل وجليل من الأفكاروالأفعال

ولم يكن ذلك التيار الروحي المتواصل الذي رعته نخب بلغت الذروة في الصفاء والسمو والفضيلة بمعزل عن الحياة العامة لعموم الناس ولا عن المنابع الأخرى للقيم السامية التي يزخر بها ديننا الحنيف في الكتاب والسنة وما تلاهما من جهود الرواد الصالحين الذين يسخو بهم الزمن من حين لآخر .

واعني بهذه الإشارة إلى أن الحياة الروحية التي تزخر بها مراحل تاريخنا منذ الماضي البعيد إلى يومنا هذا تساهم في نموها وثرائها وتنوعها ينابيع متعددة ، يضيف كل واحد منها جزءا هاما ينصب في الجدول العام فيثريه ويورثه صفتين هامتين هما الأصالة والتجدد ، وتستمر هذه الحركية الايجابية لموروثنا الروحي وركائزه الثقافية والمادية بمقدار ما نستفيد من السيرورة التي لا تنى ولا تتوقف عن حيويتها وإضافتها للجديد المفيد. فالزاوية تقوم بوظائفها المتعددة اذ تواصل مهمتها التعليمية والتربوية فتقدم المعرفة ، وتحارب الجهل والخرافة وتحافظ على الدين واللغة وعلى الجزء الهام من ذلك المخزون الروحي وتقدم لأبناء السبيل ماتيسر من معاش ، وما أمكن من حماية وامن الى جانب الإسهام في الذود عن الثغور وفك النزاعات والفتن بين الأهالي كلما دعت الحاجة الى ذلك . فمهمتها إذن متعددة الميادين والغايات ، وهي تتكامل مع الخصال والأهداف التي تثمرها التربية الصوفية ومراميها السامية.

ويعلم الله سبحانه وتعالى أنني جاهدت نفسي على ان أظل متواضعة ، شديدة الحرص على البينات من الأمور ، وقنوعة بالقليل كلما كان ذلك القليل قوي الحجة ، صادق المصدر ، بعيدا عن الشبهة. وكنت كلما تناولت موضوع أولياء الله الصالحين في هذه المعالجة التي نعتها "بإطلالة " توخيت شديد التوخي مسالك الواقعية واجتهدت ما استطعت الاجتهاد في التعبير عن العلاقة الودية المتينة التي ظلت تربط بين ولي الله الصالح وبين مريديه ومحبيه، والمؤمنين بكراماته وتجلياته واستجابة دعواته، واللجوء اليه في أوقات الشدة والفزع من مصائب الدنيا وملمات الزمان ، وهذا الملاذ الذي يشد الناس رحالهم اليه ساعات العسر مبثوثون في الجهات الأربع للوطن يتلقون الزوار وهم أحياء وعند

مماتهم تزداد علاقة الناس بأضرحتهم، ويزداد الإقبال على مدافنهم ، كما تزداد الثقة والامل في جدوى بركاتهم ، ونيل ما يصبون اليه من الإغاثة ومن السلوان .

وينضاف للرافدين الذين سبق ذكرهما وهما الزوايا بشتى خصائصها ومهامها ، والأولياء الصالحين وأضرحتهم ومزاراتهم في الأصقاع البعيدة من جغرافية بلادنا ، رافد ثالث يتجلى في فرق الصوفية الذين ذاع صيتهم في أصقاع شتى من البلاد الإسلامية مشرقها ومغربها ،شمالها وجنوبها في فترات ازدهار دول وممالك تلك الديار او في مراحل اندحارها وتدهورها وتخلفها عن ركب الحضارة.

ولقد تنامى هذا الرافد الثالث ، واتسعت رقعة تأثيره وأثرت في الزمان والمكان من العالم العربي الإسلامي منذ ميلاد الرسول ﷺ الى يومنا هذا واشتهرت تلك العلاقة المحكمة بين أهل التصوف وبين المريدين واستطاعت أخلاقهم الحميدة وتفانيهم في نشر القيم النبيلة بالفعل لا بمجرد القول.

ثلاث روافد هامة ظلت متعاونة ومتحالفة وراعية أمينة لذخائر موروثنا الروحي سواء ما نبع وتنامى منها في مشارق الإسلام أو في مغاربه.

وقد بررت خلال الأحقاب الماضية في حقل التصوف شخصيات هامة ذاع صيتها ، وتعاظم أتباعها ،فأثرت بالغ التأثير بأخلاقها الفاضلة ، وسلوكها النبيل في العديد من الأتباع الخاصة منهم والعامة .

وسألوذ باليسير من الأمور لذكر ما قاله في التصوف بعض الرواد كمسك الختام لهذه الصفحات:

يقول الشيخ مُحَّد رشيد رضا "الصوفية هم طائفة انقطعت الى الزهد في الدنيا والعمل بالآخرة، برياضة النفس وتربية الإرادة ومحاسبة النفس"

ويقول الأمير عبد القادر الجزائري "التصوف طريقة توحيد الكتاب والسنة ، وكانت عليها بواطن الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين والسادات العارفين"

ويقول ابو اسحاق الشاطبي"" ان الصوفية الذين تنسب اليهم الطريقة مجمعون على تعظيم الشريعة ، مقيم ونعلى متابعة السنة غير مخلين بشيء من آدابها"

وقال سهل التستري الصوفي "ان اصول طريقتنا سبعة :التمسك بالكتاب، والاقتداء بالسنة ،اكلا لحلال، كف الاذى، تجنب المعاصي ، لزوم التوبة ، اداء الحقوق"

وقال مصطفى صادق الرافعي "ولبعض المحققين من مشايخ الصوفية دقائق التعبير لهم تتفق لغيرهم لسمو ارواحهم ونور باطنهم."[1]

يقول الامام الشافعي"" استفدت من مشايخ الصوفية مالم استفد من غيرهم مثل قولهم اشغل نفسك بالخيرو الاشغلتك بضده""

يقول ابن تيمية"" واما حجة اهل الذوق والوجد والمكاشفة ،فان اهل الحق من هؤلاء لهم الهامات صحيحة مطابقة لما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ"

[1] محاضرات ودراسات عن الحياة الروحية في الاسلام . منشورات وزارة الشؤون الدينية والاوقاف، المجلد الجزء الرابع،ديسمبر2005

وقال مُحَمَّد المأمون عبد الوهاب الدمشقي ""التصوف له مظهران خارجي وداخلي، الخارجي هو ما نراه فيغالب المنتسبين الى الصوفية اليوم ، اما المظهر الداخلي فهو التربية الروحية التي يقوم بها المربي الكامل نحو مريديه فيطهر قلوبهم من نزوات النفس الامارة بالسوء ويغرس فيها بذور الفضيلة السامية التي ترقى بهممن الحضيض الى ذروة التكامل الإنساني"[1].

الخاتمة:

أتساءل ختاما ما هو مصير هذا الموروث الثمين في ذروة التغيرات التي أحدثت زلزال في الامم الاسلامية وأستأنس بما جاء في القرآن الكريم "ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون* الذين ءامنوا وكانوا يتقون *لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمت الله ذلك هو الفوز العظيم"[2].

قائمة المراجع:

القرآن الكـريم

1–الحمودي عبد الله، **الانقسامية والتراتب الاجتماعي والسلطة السياسية والقداسة في الانتروبولوجية** ، دار توبقال للنشر، المغرب، 1988 .

2.نور الدين طوالبي ،**صراع القيم في خالة التغير الاجتماعي السريع** ،حوليات جامعة الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر 1987 .

3–مُحَمَّد نسيب ،**زوايا العلم والقرآن في الجزائر** ،دار الفكر ،دمشق ،سورية، 1998.

4 –مُحَمَّد ثابت الفندي، مُحَمَّد ثابت وآخرون، **دائرة المعارف الاسلامية**

5 –عبد القادر ،عيسى، **حقائق عن التصوف**، حلب سورية،1961.

6– عبد الهادي ،الجوهري ،**دراسات في علم الاجتماع الاسلامي**، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة ،1983

7–ابن عبد الكريم مُحَمَّد ،الجزائري ،**التصوف في ميزان الاسلام**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر،1997.

8 –مُحَمَّد بن ربيع هادي ،المدخلي، **حقيقة الصوفية**، دار الحديث، مكة المكرمة،2000 م .

9–**تحفة السائل بباقة من تاريخ سيدي نايل** ،تخريج وجمع عامر بن المبروك محفوظي مطبعة النعمان،الجزائر،2002.

10–**محاضرات ودراسات عن الحياة الروحية في الاسلام**، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزء الرابع ،ديسمبر 2005.

[1] محاضرات ودراسات عن الحياة الروحية في الإسلام، نفس المرجع السابق الجزء الرابع.

[2] سورة يونس الآية62،63،64